

كيف فهم الأمير عبد القادر النصرانية ؟

عبد الحفيظ لعمش⁽¹⁾

مقدّمة

لا تنطوي هذه الورقة على عرض لسيرة أحد عظماء التاريخ العسكري والسياسي والديني لهذا الرجل، بل اكتفيتُ بأن أقدم صورة خاطفة عن المرحلة الفاصلة من حياة هذا البطل، في لحظة خاطفة تحمل معنى الأزمة الكبرى التي دفعته للإقدام على حقن دماء الأبرياء من مذبحه كادت أن تقع بلا ريب، ويسجل تاريخ البشرية أنّ في حياة كل عظيم رابط أو قوّة تشدّه للتاريخ، وفي حياة كل عظيم تحول طارئ أو تدريجي، يحمل صاحبه إلى الذروة، أو تهوي به إلى الحضيض. وهدف هذه الورقة أن أقدم سرّ تلك القوة، وسرد ذلك التحوّل، وسرد ذلك الرابط الذي فتح للأمير عبد القادر أوسع أبواب التاريخ.

لقد عرف التاريخ رجلا كالأمير عبد القادر يحارب حيث تكون الحرب، ويفاوض حيث تجب المفاوضة، ويثور حيث تكون الثورة، ويهادن حيث يجدر به أن يهادن. وهو في ذلك المثل الأعلى للجندي البطل، والثائر الفدائي، والصوفي صاحب الحكمة.

وعندما حاولت أن أكتب عن الباب الذي ولج منه الأمير عبد القادر إلى دنيا التاريخ من أبوابه المقدسة، استبدّ بي نوع من الحيرة، وأنا أستعرض جهاده ضدّ فرنسا، ففي كل حادثة¹ تضمن للأمير أن تدخله رحاب التاريخ من أوسع أبوابه ضمن الخالدين، لأنّ الحياة لا تقاس بطولها، وإنّما تقاس بعرضها وعمقها. فكان من باب الإنصاف أن يدرج (مايكل

⁽¹⁾ Université de Bordj Bou- Arreridj, 34000, Bordj Bou-Arreridj, Algérie.

¹ أذكر أهم المعارك التي دارت مع الأمير ضد العسكر الفرنسي : واقعة خنق النطاح الاولى- واقعة خنق النطاح الثانية-واقعة برج رأس العين-وقعة المقطع وهزيمة الجنرال (تريزبل)- واقعة (واصل) في نواحي تلمسان

هاربت² شخصية الأمير عبد القادر ضمن شخصيات : (الخالدون المائة)، بعدما لاحظ أنّ دوائر المعارف لم تذكر سوى عشرون ألفا شخصا، في حين يوجد عشرات الآلاف من ملايين الناس لم يتم ذكرهم، ومنهم الأمير عبد القادر بن محي الدين.

صحيح أنّ المؤلف لم يفتش في التاريخ الإسلامي طويلا، وإلا لوجد عطاء في كل فروع المعرفة والسياسة والدين. ولوجد للأمير عبد القادر رقما ترتيبيا ضمن المائة الذين اختارهم بحسب المواصفات المعتمدة لديه، ولا ريب في تطابقها مع شخصية الأمير السياسية والعسكرية والدينية، فهو الداعي والعسكري، والسياسي والإداري، كما أنّه الرئيس والرجل العابد الناسك³.

الأمير الداعي

ظهر الأمير في البيت الصالح وفي البيئة الصالحة وتهيأت له الصفات التي يتم بها أداء مهمته رغم صعوبتها وجسامتها ثقلها، فكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة، وكانت له قوة الإيمان بقضيته، وغيرته على وطنه وأمته. ولما كان للفصاحة صفة تجتمع للكلام ولموضوع الكلام، فقد تكاملت للأمير له في كلامه، فكان أفصح اللسان، وكانت له مع الفصاحة سهولة الخلق تحببانه إلى كل من رآه، وتجمعان إليه قلوب من عاشروه، فكان جامعا للثقة والمحبة، أهلتة لحمل قضية وطنه ضد الظلم والفساد الممارس من طرف فرنسا، فلم يهجم هجوم ساعة أو يوم، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره، ولكنه تردد حتى تيقن وتأكد، وجزع حتى اطمأن. فخرج مجاهدا بكل ما أوتي من قوة ورباطة جأش، وتوجهت دعوته حيث اتجهت شرقا وشمالا وجنوبا⁴.

² مايكل هاربت : عالم فلكي كان يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية. وكان صاحب الميول التاريخية، أعد كتابا في 600 صفحة بعنوان (المائة). تقويم لأعظم الناس أثرا في التاريخ. بعدما وضع هذا المؤلف مقاييس ثابتة لاختيار الشخصيات المائة، على أن تكون حقيقية، ويكون لها الأثر العميق في البشرية، إذ لا يكفي أن يكون له أثر إقليمي. ولذلك فقد اختار محمد - صلى الله عليه وسلم. أول هذه القائمة : منصور أنيس، (1986م). الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله. (ط.7). الزهراء للإعلام العربي.

³ ينظر كل الصفات التي اقتدى بها الأمير بشخصية النبي محمد - صلى الله عليه وسلم التي تحدث عنها العقاد في أحد عبقرياته : (عبقرية محمد) فذكر صفات محمد - صلى الله عليه وسلم. ومنها : محمد الزوج والسيد والصديق، ومحمد رجل التاريخ.

⁴ أذكر مثلا : قتال الأمير للفرنسيين في مستغانم، وهران بالغرب ثم بالناحية الشرقية للغرب كل من المدية والأغواط، ومن البلاد الجنوبية والشرقية كل من بسكرة وسطيف، والجهة الشمالية الغربية شرشال وموزاية... الخ.

وقدوته في حياته النبوي محمد -، صلى الله عليه وسلم، اقتدى بسيرة النبي في معاملة أهل الذمة من بني جلدته بالرفق واللين والنصيحة، على الرغم من أنّ منهم من آمن به ومنهم من غدر، وتكرّر للجميل، بل ساهم في إعانة أهل الظلم والعدوان بالنصرة ومدّ السلاح. وحدث غير مرة أنّ من أهل الذمة ومنهم اليهود، كانوا يصاحبون الجيشين المتقاتلين لشراء الأسرى، وبيع المؤنة، وبذل القروض، ثم يتقابلون على تفاهم عند تصفية الأعمال والمساومة: فوقر في أخلاذ الأمم أنّهم شعب غريب (العقاد، د. ت). ويسجل التاريخ على اليهود أنّه كانت لهم مشاركة في كل فتنة، وكل غارة أين ما كانوا وأينما حلّوا. فهم الذين قاموا بتغذية الصراعات الطائفية بلبنان وسورية إبان قدوم الأمير عبد القادر إلى دمشق آتيا من الأستانة، مستخدمين الآليات العسكرية الفرنسية والإنكليزية، وقد دفعوا بفرنسا إلى ادّعاء حق الحماية على نصارى الشرق، فسعت إلى تقسيم لبنان وإعادة تنظيمه وتقسيمه بين الدروز والموارنة، وجعلت من يحكم المناطق المختلطة هم مشايخ الدروز، ومن خلال هؤلاء قامت بتفجير الحرب الأهلية سنة 1845م (بروكلمان، 1984م)، مستغلة الأغلبية السكانية للمسيحيين والأقلية للدروز، وقامت بتجريدهم من السلاح وأعطته للمسيحيين، وهو ما جعل الفتنة تخرج قرونها للعلن وتقع الحرب.

ثم تتجدد في سنة 1859م ويتم اخمادها بالصلح بين الطرفين، وتقوم جماعة من الدروز بقتل رئيس دير كنيسة الروم الكاثوليك، فيهيج النصارى ويقتلون درزي، فينتشر الخوف بين الناس خوفا من الانتقام، ويتجمهر الدروز، وتبدأ عمليات الحرق والتّهب للقري المسيحية، وتشرئب الأعناق إلى السماء منتظرة مخلصا كما انتظرته المسيحية في عهدها الأول لما كانت تترقب ظهور مسيح من نسل داود يعيد مجد اليهود التليد، ويكون ظهوره بأرض الجليل بفلسطين. وتلوح البشائر بظهور الأمير عبد القادر؛ صاحب الحكمة السياسية والعسكرية والدينية، فيسعى إلى رأب الصدع الذي وقع، محذرا الدروز من مغبة التمادي في الغي، مرشدا إياهم إلى ترك ما عوّلوا عليه (محمد عبد القادر الجزائري، 1964م). مستلهما درس الحياة من واقعة (متيجة) سنة 1842م لما تنصّر بعض أهلها فوقع بينهم وبين المسلمين وقائع عظيمة، حتى تدخل الأمير فخضع المنتصرة له بالطاعة، فتقبلها منهم، وعفا عنهم، وردّ إليهم ما أخذ منهم، وتعلّق الناس به رغم محاولات الفرنسيين من الإغراء والتخويف للسكان (محمد عبد القادر الجزائري، 1964م).

وتفهم الأمير دوافع الفتن الطائفية والمنابع التي تتغذى منها، فما زاد حرب الفتنة اشتعالا في الشام هو إدعاء النصارى أحقية الإشراف والتسيير للأماكن المقدسة التي

تحفل به ذكريات المسيح والرسول، والتي كانت ملكا مشاعا للطوائف المسيحية من كاثوليك وأرثوذكس، وأرمن وسريان، وأقباط وأحباش. وكانت كنائس السريان، والأقباط، والأحباش قد دخلت تحت حماية الأرمن الذين كانوا بمثابة القوة المالية في يد الدولة العثمانية. وراحت تتخمر عدوى الكراهية بين الدروز المسلمين والنصارى الذين راحوا يطلبون الحماية الأمنية لهم من الباب العالي ومن فرنسا، خصوصا لما قام بعض أبناء المسلمين برسم الصليب على الورق ورميه في الأماكن القذرة، ورسمه أيضا على الطرقات ليدوسه المازة، استفزازا لمشاعر الطوائف المسيحية. فأدرك الأمير عبد القادر خطورة هذا الأمر الذي قد يجلب الفتنة ويقع ما وقع بجبل لبنان، فيتخذه الفرنسيون ذريعة لحرب البلاد والعباد. فلما وقعت الفأس في الرأس خرج الأمير عبد القادر ناصحا للفریقین داعيا إلى ضبط النفس وتحكيم العقل، كي لا تنزلق الأمور إلى ما لا تحمد عقباه. غير أنّ الغوغاء وسفهاء القوم من الدروز تنادوا بالجهاد ضد أبناء عمومته من أهل المسيحية، وهم بين ظهرانهم ومن أهل الذمة.

فلم تعرف الدهماء حقوق الجار في الدين والطين، مما أدرك الأمير واجب استجارة المجير وحماية الدمى وفدائه بالنفس والنفيس، قدوة بخير البرية محمد -صلى الله عليه وسلم -، وقدوة بالسيد المسيح. فجعل تحت حمايته ما يقارب من خمسة عشر ألفا مسيحيًا في البيوت والأقبية، بل للاحق الذين أخذوا الناس عنوة من ديارهم فأمر بإرجاعهم حماية لهم من الذعر والخوف، ثم أرسل ببعض النصارى إلى بيروت ليبلغهم مأمهم (محمد عبد القادر الجزائري، 1964م)⁵. وقد تعلّم الأمير هذا الدرس، واكتسب طريقة احتواء الأزمة من خلال ما عايشه في الجزائر من بعض القبائل⁶، فمثلم مثل بعض الدروز بلبنان ودمشق، حيث كان من دأهم سلب النفوس والأموال وقطع الطريق أمام عابر السبيل، فنهض الأمير لقطع شأفهم، واكتسح أموالهم وشتت شملهم، وهو ما قام به بالفعل وبنفس الموقف ضد الدروز، بل سعى الأمير إلى الصلح بين الطرفين كما قام به من قبل بأرض الجزائر بين قبائل من البربر في نواحي نهر (مينة) (الأصنام أو الشلف حاليا)، فجمع كلمتهم، وبالغ في عقوبة من أثار الفتنة وأسعرها⁷.

⁵ محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر ...، ص. 632. حيث ذكر المصدر أن الفتنة استمرت مدة أربعة عشر يوما.

⁶ مع ما قامت به قبيلة (فليتة) من اعتداء على الناس، جعلت الامير يهزمهم بمنطقة (بهيرة) - الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ص. 168.

⁷ نفس المصدر، ص. 168 وما يليها. وص. 426. حيث قام الأمير بالصلح بين أولاد (الأكرد) و(أولاد شريف، و(بني نسلم).

الأمير العسكري

لقد نجح الأمير في دعوته ضد الاستعمار، وكان سبب نجاحه اتقانه لفنون الحرب، ولم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله، لكن أحداث الكر والفر تبين أنه كان يلجأ إليها ولا حيلة له في اجتنابها، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة. وحروب الأمير لم تكن هجوماً إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعدما يتبين له نكث العهد والإصرار على القتال، فكان بالفعل القائد البصير الذي يصيب في اختيار وقته، وتسيير جيشه، وترسيم خطته، فكان يوجه همة الأول إلى ضرب القوة العسكرية للعدو بأسرع ما يستطيع، فيبادره بهجمة سريعة يفاجئه بها، وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التي يلجأ إليها معظم القادة العسكريين. فكان الأمير يختار الموقع الملائم له، ويختار الفرصة، و يعاجل ويباغت العدو قبل تمام استعداده، وهذا لا يعني أنّ الأمير لم يكن ليرتكب خطأً في حروبه مع الفرنسيين -البته- فيذكر التاريخ أنّ من أسباب هزيمة القادة العسكريين الزعماء إهمالهم للنصائح التي يسمعونها في مجالسهم الحربية، لاعتقادهم باستتباب الأمن والخطأ التقديري في استطلاع أخبار الجند، ولم يكن الأمير في منأى عن ذلك، على الرغم من خبرته بالحرب وقدرته عليها.

الأمير السياسي

تولى الأمير أعمالاً كثيرة في المجال السياسي تتجلى في سياسة خصومه. وسياسة عدوه الاستعماري، وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يصلحان، وفي الاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود. فبدأ بالدعوة إلى محاربة فرنسا، مشاركا كل القبائل، رافعا لواء الثورة التي جعلها قضية واحدة في وجه الاستعمار، فأفسد على فرنسا ما كانت تحلم به من بسط النفوذ على خيرات الجزائر واستغلالها بغير وجه حق. ثم أفسد على فرنسا من جهة أخرى ما تعمدته قادتها بما ادّعوا من قطع الأرزاق، فقابلهم الأمير بمقاومة تجتنب العنف من غير اجتناب القوة، والتزام السلم وترك المقاومة، فلم يركن إلى السلاح وحده ولا إلى السلم وحده، بل وضع كل شيء في نصابه، فقد خرج الأمير إلى الماريشال بيجو قائلاً له :

"واني أراك -أيها الحاكم- تبذل جهدك، في تعطيل مواسمنا، لتقلّ الحبوب عندنا. ظلنا منكم : أن ذلك ؛ أقوى سبب لخضوع أهل البلاد إليكم. والحال ؛ أن هذا، ليس بشئٍ عندهم. فإنّ هممهم ليست متعلقة بلذائد الأطعمة والأشربة مثلكم. بل يكفهم : ما يسدّون به رمقهم. وقيم أودهم كيفما كان. على أنّه يوجد عندهم، من صنوف الحبوب ، المحفوظة في الآبار، المعدّة لها ما يكفهم سبع سنين آتية ... فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم، في طغيانكم تعمهون."⁸

الأمير الإداري المحنك

نريد أن نشير إلى بعض أعمال الأمير ووصاياه من حيث هي ملكات شخصية لازمتها حيث كان، فهو صاحب الملكة الإدارية التي بنيت على أساس التفكير، واستطاع أن يقيم بناء إدارة على أسس قومية استطاعت تشكيل الدولة الجزائرية الحديثة.

الأمير الناسك

اجتمعت في شخصية الأمير طبيعة التفكير، وطبيعة العمل، وطبيعة العبادة، وكانت فيه هذه الطباع جميعا مجتمعة، فكان عابدا ومفكرا وعاملا يغيّر الدنيا بعمله، تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه، فهو الذي ولد في بيت التقوى، فعرفه الناس بالوصف والرواية، ونقلوا عنه كل لمحة من لمحاته : في سماه وفي هندامه، وفي شرابه وطعامه، وصلاته وصيامه، وحله وترحاله، وسكوته وكلامه، فكان الأمير مثالا نادرا للرجولة العربية، استوفى شمائل المحبة والمهابة. فكان الأمير : الداعية، والعسكري، والسياسي، والإداري، والعاقد الناسك، أكثر الشخصيات التاريخية في بناء جسور التفاهم والتسامح بين الأديان في منطقة الشام، إذ يعود له الفضل في تكسير أبواب الفتنة الكبرى بين المسيحيين والمسلمين في كل من لبنان ودمشق.

الأمير الفقيه بالديانة النصرانية

تبدو مزية الأمير في البحث والاستقصاء في تعامله مع أهل الذمة، اطلاعه على سيرة النبي عيسى بن مريم - عليهما السلام من خلال آيات القرآن الكريم، ومن خلال التراث اللاهوتي الإنجيلي الذي حمله المبشرون معهم إلى الجزائر وهم مصاحبين للجيش

⁸ هذا النص موجود في : محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، صص. 396-397.

الاستعمارية الفرنسية، فراح الأمير ينظر إلى سيرة المسيح من خلال هذين المصدرين ليوقف على دعوة المسيح التي جاءت في الزمان والمكان اللذين كانا أحوج ما يكونان فيه إلى من يعيد الحق إلى نصابه، ويرد الضالين عن التماسي في الانحدار إلى متاهات الضلال.

ويقف الأمير عند الأقوال التي جاءت على لسان السيد المسيح في مجال التوصية والوعظ، فلا يرى فيها ما ينكر أو يستغرب، إذ الغرض الذي يرمي إليه المسيح منها، تطهير النفس وتنزيهها أولاً حتى يبلغ التطهير أعماق أعماقها، واجتثاث ما تنطوي عليه من جذور الشر وبذور الفساد ثانياً. وذلك مثل قوله: "لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فأترك له الرداء أيضاً. ومن سخّرك ميلاً واحداً فإذهب معه اثنين. من سألك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه"⁹، و "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم"¹⁰.

وأدرك الأمير أن المسيح عليه السلام قصد المعاني ولم يقصد الحروف، وفهم أن الوصايا كانت موجّهة إلى تلاميذ المسيح ورسله المتجردين لنشر الدعوة، خلاف ما يقوم به المبشرون الكنسيون الحاليون، الذين لبسوا ثياب الرهينة وهم يمهّدون طريق الاستعمار والاحتلال.

جسد الأمير عبد القادر في نفسه أخلاق السيد المسيح من تربية روحية جعلته منذ صباه عرضة للقلق والتنقيب في أعماق ضميره لعله يعرف مدى اقترابه أو ابتعاده من طريق الله، وقد تغلب الأمير على محنة القلق بالجهاد والصبر الأليم، كما صبر السيد المسيح الذي كان يبتهل إلى الله في أخريات رسالته قائلاً: "إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. لكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت"¹¹.

لقد فهم الأمير الديانة النصرانية وفهم عقيدتها التي قوامها أن الانسان خاسر إذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه¹²، وأن ملكوت السماء في الضمير وليس في القصور والعروش، وأن المرء بما يضمّره ويفكر فيه، وليس بما يأكله وما يشربه، وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحارِب. وهل كانت للدنيا آفة غير آفة التناحر على المظاهر؟ وأن الحب

⁹ انجيل متى الإصحاح 5، الفقرة: 29-42.

¹⁰ انجيل متى الإصحاح 5، الفقرة: 44.

¹¹ انجيل متى الإصحاح 26، الفقرة: 39.

¹² ينظر انجيل متى، 16: 26 وينظر: انجيل مرقس، 8: 36، وانجيل لوقا، 9: 25.

أفضل الفضائل، وأفضل الحب حب الأعداء، وأن الكرم أن تعطي من يسألك، وأكرمه أن تعطي فوق ما تسأل، وأن تعطي بغير سؤال، وأن ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال، وأن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله¹³.

فهم الأمير أن الدعوة المسيحية كما ساقها الغيب وترقيها العالم الذي سيقم إليه دعوة إلى الإخاء، ودعوة إلى اقتلاع جذور البغضاء، والدعوة إلى السلام، ودعوة إلى تحطيم سلاح الأقوياء، وليس تحطيم سلاح الأقوياء حجة وعذر للمتقاعس، لذلك قال المسيح :

"جئت لألقي نارا على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت؟"¹⁴، وكان يقول لتلاميذه :

"أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلاما"¹⁵ ثم يبادر فيقول : "كلا... وإنما هو الصدام والانقسام، خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين، واثنين على ثلاثة : ينقسم الأب على ابنه، والابن على أبيه، وتنقسم الأم على بنتها، والبنت على أمها، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة"¹⁶. فعلى هذا الوجه وحده فهم الأمير الدعوة المسيحية على جليتها بالرغم ما يبدو عليها من النقائص والأضداد، فقد قال المسيح : " الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس... وزنايق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل، وسليمان في كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها، فإذا كان العشب الذي يقوم اليوم في الحقل ويطحر غدا في التنور يلبسه الله، فما أحراركم أن يلبسكم يا قليلي الإيمان..."

"نعم... وإذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش، فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى... اطلبوا كنوزا لا تنفد في سماواتها، حيث لا تنالها يد السارق ولا يبيلها السوس"¹⁷.

¹³ ينظر انجيل متى الاصحاح، 22، الفقرة 21.

¹⁴ انجيل لوقا، 12 : 49.

¹⁵ قال المسيح بحسب انجيل متى 10 : 35 : (لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاما على الأرض. ما جئت لألقي سلاما بل سيفاً).

¹⁶ ينظر انجيل متى الإصحاح، 10 : الفقرة 35 ومايلها. وجاء في سفر ميخا : ؟؟؟ (ما في الناس من مستقيم، كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك، لا تأمنوا صاحباً، لا تثقوا بصديق، وأوصد فمك عن تلك التي تضطجع في حضنك، إن الابن بأبيه مستهين، وإن البنت على أمها ثائرة... والكنة على الحماة، وللإنسان من أهل بيته أعداء).

¹⁷ ينظر إنجيل متى الإصحاح، 6 كله.

ويقول :

"ما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وامرأته. وبنيه وإخوته، بل يبغض نفسه "وما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعني في طريقي"¹⁸، قال هذا هو القائل : (أيها السامعون: أحيوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم باركوا لاعنيكم، ادعوا لمن يسيئون إليكم، من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك، وكل من سألك فأعطه. ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم، وأي فضل لكم أن أحببتم الذين يحبونكم ؟ إن الخطأة ليحبون من يحبهم...."¹⁹

وقال هذا هو القائل : "إن أخطأ أخوك فوّخه، وإن تاب فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبع مرات وتاب إليك سبع مرات، فتقبل منه توبته"²⁰، وهذا نقيض ذلك، فهمها الأمير على أن هذه الرحمة التي تعمّ الأعداء والأحباب، نقيض البغضاء التي تشمل بها أحب الناس إلى الناس: الآباء، والأمهات، والأبناء، وذوي الرحم والقربى.

أدرك الأمير أن رسالة المسيح رسالة قلب كبير يشعر فيجذب إليه كل شعور، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين، وحيث يكون الظلم هو الآفة، فالمتهمون أولى الناس بالرحمة والعطف والإنقاذ، فطوبى للحزائى. طوبى للمساكين. طوبى للجياع والظلماء. طوبى للمطرودين في سبيل البر، طوبى للودعاء والرحماء، هكذا قال المسيح : "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين... احملوا نيري عليكم وتعلموا مني... فتجدوا راحة لنفوسكم. لأن نيري هين وحملتي خفيف"²¹، أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون أنهم جائعون، والأغنياء الذين لا يعلمون أنهم معوزون، والمتجبرين الذين لا يعلمون أنهم مساكين، والمتكبرين الذين لا يعلمون أنهم منكسرون.

لقد توصل الأمير إلى فهم لب الرسالة المسيحية من خلال لبّ رسولها المسيح، فلا رسالة في الحق بغير رسول، ولا سبيل إلى قيام المسيحية بغير مسيح، فإن مصدر الرسالة الروحية

¹⁸ ينظر : إنجيل متى، 10 : 38.

¹⁹ ينظر : إنجيل متى، 6 : 9 وما يليها من فقرات.

²⁰ ينظر : إنجيل متى، 18 : 22

²¹ إنجيل متى الإصحاح، 23.

هو زبدتها وجوهرها، وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفاذها، وكل ما عداه فروع وزيادات. فلو عاد المسيح إلى الأرض لأنكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه، وأن العبرة بما في الضمائر لا بما توحى به الألسن ويبدو على الوجوه، وأن الوحي في طوية الإنسان، لا في طوايا الكتب والأوراق. وعلى صرح الضمير النقي تصدى الأمير لأبواق وأبواب الفتن.

أبواب الفتنة الكبرى وتصدي الأمير لها

تذكر رواية تاريخية عن قيام جماعة من الأرثوذكس الذين كانوا تحت حماية الروس بسرقة نجمة فضية مزخرفة كانت معلقة فوق مسقط رأس المسيح بكنيسة المهدي بيت لحم، فأعلنت فرنسا تحت هذه الحادثة ذريعة مقاومة ضد النفوذ الروسي في الشرق²². وساهمت في هذه الفتنة أيضا دولة النمسا بتأجيج الفوضى والثورة بالجبل الأسود بلبنان ضد الدولة العثمانية، معتبرة ما تقوم به من دعم لسكان الجبل كرد لجميل فعلوه خلال الثورة المجرية. فكان التعاون التام بين روسيا والنمسا في إرغام (الباب العالي) على وضع معاهدة يُعترف بموجبها بحق الأرثوذكس برئاسة البطريركية. وتحالفت كل من فرنسا وبريطانيا ضد الدولة العثمانية، مما جعل (الباب العالي) يخسر الحرب في بحر مرمرا، وتتأخر روسيا في التدخل إلا في سنة 1854م في جزيرة القرم. وتتحرك مشاعر الأمير عبد القادر كمسلم غيور على دينه بأن يستعين بربه نصرته لسلطان الباب العالي قائلا²³:

ياربّ ياربّ يارب الأنام' ومن إليه مفزعنا سراً وعلانا
ياذا الجلال وذا الإكرام " مالكننا... يا حيّ يا موليا فضلا وإحسانا
ياربّ " أيّد بروح القدس ملجأنا... عبد المجيد. ولا تبقيه حيرنا.
ابن الخلائف، وابن الأكرمين، ومن توارثوا، الملك سلطانا فسلطانا

ويتم فيما بعد تدوين وثيقة تلزم الدولة العثمانية على السماح بالحريّة الدينية للمسيحيين، وبتقلد المناصب العليا في الدولة، وفي المجالس المحلية، بل يحق حتى للأجانب امتلاك الأراضي، ولكن بشروط معينة. ويربط بعض المؤرخون أسباب تفشي الفتن

²² ما أشبه الامس باليوم إ فإن حادثة المروحة التي استعملت كذريعة في احتلال الجزائر ، تعيدها فرنسا في الحد من النفوذ الروسي باتهام الأرثوذكس بنزع النجمة من كنيسة المهدي بيت لحم.
²³ الأمير عبد القادر، تحفة الزائر. ص. 586.

الطائفية بجبل لبنان ودمشق إلى تلك المعاهدات التي عقدت بين القوى العسكرية الأوروبية ضد الدولة العثمانية، ومنها معاهدة باريس.

معاهدة باريس تمهد للفتنة بلبنان

تنعقد معاهدة باريس سنة 1856م كمشروع لإضعاف الإمبراطورية العثمانية من الداخل، وذلك بزعم الخلافات بين الدرروز والموارنة في لبنان، ونجح مشروع المعاهدة في سنة 1860م لما انقضت الدرروز على الموارنة تحت مرأى الجنود العثمانيين الذين لم يحركوا أي ساكن بحجة عدم دفع رواتبهم. وبدأت العدوى تنتقل إلى دمشق في ملاحقة المسيحيين قتلا ونهباً. فانبرى لهذا العدوان (الأمير عبد القادر) بمعية ثلة من رجاله في وقف هذه الفتنة الدهماء التي فتحت الباب أمام فرنسا بإرسالها لستة آلاف جندي إلى سورية ردعا لفعلة الدرروز، وما قاموا به من مذبحه في حق المسيحيين²⁴. ونزل الجنرال الفرنسي (بوفور) بجنده لضرب دمشق، وكان مصرا على ذلك لولا تهديد الأمير عبد القادر له بالوقوف ضده، فجعله يعدل عن موقفه ويعود أدراجه من حيث جاء. لتبدأ برقيات الشكر والعرفان²⁵ لصنيع الأمير عبد القادر، وما قام به من حقن لدماء زكية كادت أن تُزهق باطلا بدون وجه حق، وتحفل الإمبراطورية العثمانية بإقامة استعراض عسكري تدعو له الأمير لحضوره فيعتذر قائلاً: "إنّي شاهدت ذلك فعلاً وعملاً، وكنت أتلقّى الرصاص والكلل بصدري، فلا لذّة لي، الآن برؤيته تمثيلاً"²⁶.

²⁴ كما وقفت فرنسا مع المسيحيين باعتبارها الحامية لهم في لبنان ودمشق، وقف الإنكليز إلى جانب الدرروز فقامت بوقف مواصلة حملة الإعدام التي كانت قد شنت من طرف الباب العالي على زعماء الدرروز، وأبعد 2491 درزيا إلى طرابلس، وما لبثوا أن منحوا بعد خمس سنوات حرية العودة إلى ديارهم. - كارل بروكلمان 1984م، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص. 573.

²⁵ من رسائل ملوك العالم وقادته، ورسائل الجمعيات الخيرية، ما أورده المصدر: الأمير عبد القادر، محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر من ص. 641، إلى ص. 659. ومن هذه الرسائل: ما كتبه وزير خارجية فرنسا - نص مرسل بخط ملك بروسيا - نص مرسل بخط قيصر الروس - نص تحرير ملك إيطاليا - نص ما كتبه ملك اليونان - نص فنصل دولة انكلترا في دمشق - كتب الأديب: اسكندر آغا أبا كاريوس في كتابه: نواذر الزمان في وقائع جبل لبنان) - جمعية عمل الخير وإعانة المصابين في البر والبحر الفرنسية - نشرت بعض الجرائد الأوروبية من أخبار الحادثة الشامية.

²⁶ الأمير عبد القادر، تحفة الزائر. ص. 636.

الأمير بعد الحرب يركن إلى العلم

ما إن أخذت الأمور تسكن وتستقر بدمشق حتى بدأ الأمير يشغل باله بالعلم والمعرفة، وكانت مدرسة الحديث الأشرفية نقطة انعطاف في حياته لاهتمامه بدروس الفقه والتفسير، وعلم مصطلح الحديث ورواة الحديث. وتعود قصة هذه المدرسة إلى ما بلغ الأمير من شكوى صاحب المدرسة، وأنّ مسيحياً اقتطع زاوية من أرضها وجعلها مرتعاً لشرب الخمر، وأنه لم يصغ لأمره أحداً من ولّاء الأمور. فتنقل الأمير عبد القادر إلى عين المكان واشترى القطعة المغتصبة، وضمّها للمدرسة جاعلاً إيّاها موقفة على ذمّة صاحب المدرسة. وافتتح الأمير بها تدريس كتاب صحيح البخاري، وتدرّس كتاب السيوطي (الإتقان في علوم القرآن)²⁷.

إنّ ما قام به الأمير من خصال فذّة جعلت الكثير من الأدياء يشيدون به، ومن هؤلاء على سبيل المثال الكاتب والأديب المسيحي (سليمان أفندي الصولة) الذي قال في الأمير ما نصه :

"الحمد لله الذي جعل مكارم الشّيم، داعية الفصاحة، في الغُرب والعجم. وبعد: فلما أجمع البشر، من البدو والحضر، على مدح: آية الحرب والمحارب، والقلم، والقرضاب، السيد الشريف المستغني - لشهرته - عن التعريف... مولانا الأمير عبد القادر. ذو السيف الباتر، والفضل الباهر، والحلم السّافر، والحزم الوافر، ربّ المفاخر والوقار، والسّمح المدرار، المغربي التّجار [قدوة بيوسف النجار- أو المسيح أنه كان نجاراً] والمشرقي الأنوار، القاطن الآن بالكنانة، قمر حفّه الجمال، وزانه. أحببت أن أتشرف بمدحه السّامي، كما تشرف كعب بمدح جدّه التهامي."²⁸

الأمير: أمير حوار الأديان والحضارات

عقد علماء باريس اتفاقاً على أن يدوّن اسم الأمير في ديوان العلماء، وانتهى بهم الحديث إلى ذكر مؤلفاته، ومواعظه، فأثبتوا اسمه في ديوان العلماء من كل أمة وملة من أهل

²⁷ جعل تدريس كتاب (الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز) لأحمد المبارك بمدرسة الجقمقية، وجعل تدريس كتاب (الشفاء) للقاضي عياض وكتاب (العقائد النفسية) وصحيح مسلم تدرّس بجامع سيدي يحيى - الأمير عبد القادر، محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ص. 602.

²⁸ محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ص. 602.

القرون الماضية، فأثبتوه وكتبوه إليه يخبرونه بذلك، فكتب إليهم رسالة وسماها : (ذكر العاقل وتنبية الغافل)²⁹. ولما تيقنت أن الأشياء تعرف بأضدادها لم يسعني سوى نقل ما كتبه عبد الرحمان، سلطان المغرب الأقصى إلى مشايخ بني (يزناسن) وأهل (أنكاد)، أن يكونوا يدا واحدة، في إخراج الأمير من بلاد الريف الغربي، فجاء فيه : "بلغنا : أن الأمير عبد القادر، نهض في قومه، ومن انضاف إليه، من إخوانكم، الذي استفزهم وخدعهم : بتمويهه وإبطاله؛ حتى نزل (بجامع الغزوات) على من بها من النصارى، وعسهم. وأوقع فيهم. وقتل جلهم. ولم ينج منهم ؛ إلا من فر بنفسه. وما مراده ؛ إلا إثارة الفساد، وجلب الشرّ والفتنة، للمسلمين، كما جلبها لإيالة الجزائر وغيرها. حتى أوقعهم في الكفر -والعياذ بالله- وانقادوا بسببه ؛ لاستيلاء الكفار. وأسلموا أنفسهم لأحكامه وعاد عليهم، شؤم فعله بالدين، الذي لا يرضاه مسلم. ولا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم. وقد خدعكم : بإظهار الدين وأحوال الصالحين. وما في ضميره ؛ إلا الفساد، وإيقاد الفتنة بين العباد. ومن يتبعه على ذلك ؛ إلا هو، من الأخسرين أعمالا، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا. وهم يحسبون : أنهم يحسنون صنعا. ونحن لا نكره الجهاد بشروطه. ونكره : ما يعود بالضرر، والغلبة، لجانب الإسلام. ولكن هذا المشئوم ؛ أراد نقض ما أسّسناه، من الصلح الشرعي، وإيقاد الفتنة بعد إطفائها. سعيا : في هضم جانب عزكم، وإفساد دينكم ودنياكم. وتكدير خاطرنا عليكم. وأنتم لا تشعرون ... وما عقدناه من الصلح، مع العدو الكافر ؛ أسّسناه على قواعد الشرع العزيز، وبنيناها، واقتدينا فيه برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإنه صالح كقار قريش صلح الحديبية، حين صدّوه عن البيت الحرام ... فكيف يأتي هذا البداع يعلم أحوال الجهاد وأحكامه ؟ ونحن أعرف به منه، وما ورد فيه. ولو رأينا الخير للمسلمين، في غير الصلح ؛ ما ارتكبناه. فلا يفيدهم إلا ذلك. وإنّ من تبعه فقد باء بالضلال والردي، وحاد عن شريعة الهدى (محمد عبد القادر الجزائري، 1964م، صص. 488-489). وقد أحجمت في التعليق على هذا النص لما فيه من الجور والهتان العظيم، ولما فيه من خذلان المسلم لأخيه المسلم، وكيف يبرر الفاشل فشله برمي التهم على غيره بأنه معثرة له ولجأه وسلطانه.

²⁹ كتاب : ذكر العاقل وتنبية الغافل، جعله الأمير في مقدمة وثلاثة أبواب، في كل باب فصل وتنبية وخاتمة. وجعل في الباب الأول فصل العلم والعلماء، وفيه فصل في تعريف العقل وفضل ادراك العقل على ادراك الحواس. مبينا انقسام العلم إلى محمود ومذموم. وبين في الباب الثاني فضل العلم الشرعي. وفيه فصل في إثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية، وفي الباب الثالث فيه فضل الكتابة وبيان عدد كتابات الأمم.

خاتمة

إنّ النَّصر الحق ليس في التغلّب على عدوّ الأُمس والحلول مكانه. لا ينقلب الظلم عدالة بمجرد انتقاله من معسكر إلى آخر ؛ النَّصر المبين في إعادة القيم الروحية إلى إشراقها بالثبث بسامي مبادئ العدالة الاجتماعية والحرية والسلام في كنف الكرامة. وهذه هي رسالة الأمير عبد القادر التي وجهها إلى المحافل الدولية. رسالة سلام تفرض مراعاة حقوق الإنسان والعمل من أجلها، تختلف عن رسالة بعض المؤسسات المسيحية التي لم تفك تضامنها في الغالب مع القوى الاستعمارية الغربية، وهناك مؤسسات مسيحية معتدلة شعرت بالظلم والحييف، فراحت تراجع موقفها إزاء المظالم التي اقترفتها الغرب، وأعلنت تعاونها مع الشعوب المقهورة على اعتبار أن المسيحية كانت دين التّواضع والفقير. ولقد أدرك الأمير أنّ انعدام الحوار هو الدّاء العضال الذي تشكو منه الأديان، وأنّه بالحوار يمكن إيجاد المجال الواسع في التعاون الذي يدعو إليه الإسلام كما تدعو إليه المسيحية، فكلاهما يقيمان الإخاء الإنساني الشامل الذي يعلو فوق فروق اللّون والجنس، والطبقة والإقليم الجغرافي. وكم نحن محتاجون إلى اللغة الأخلاقية التي عمل بها الأمير عبد القادر في مجال حقوق الإنسان وفي حقوق الشعوب والطوائف الدينية من إقامة السلام على العدل. فكان بحق السماء والأرض أن يتبوأ الأمير عبد القادر محراب الخالدين، وأن يكون من الذين دخلوا التاريخ من أبوابه المقدسة.

بيبليوغرافيا

- أنيس، منصور (1986). الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله. (ط. 7). الزهراء للإعلام العربي.
- بروكلمان، كارل (1984). تاريخ الشعوب الإسلامية. (ط. 10). نقله إلى العربية : نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، بيروت : دار العلم للملايين، ص. 566.
- عباس، محمود العقاد (د.ت). الصهيونية العالمية. صيدا-بيروت : منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- عباس، محمود العقاد (د.ت). عبقرية محمد. صيدا-بيروت : منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ص. 16.

محمد عبد القادر الجزائري (1964م). تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. (ج1، 2)، (ط. 2). بيروت: دار اليقظة العربية، صص. 424-630.

منصور، أنيس (1986م). الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله. (ط. 7). الزهراء للإعلام العربي.